

استقاء المنهج التحرري من النهضة الحسينية

2020-09-01 شبكة النبأ

تتيح الوثائق التاريخية فرصة دقيقة للباحثين، لمعرفة الأسباب الموجبة لإعلان الإمام الحسين عليه السلام موقفه الرفض للسلطة الأموية آنذاك، بعد أن سلبت الحقوق والحريات من الأمة الإسلامية، وانحرفت بالإسلام نحو طريق مناقض لما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وآله في رسالته التي تكلفت برفع الأغلال عن المجتمع، فكانت الحرية هي الهدف الأساس للرسالة النبوية.

تعرف الحرية على أنها إمكانية الفرد دون أي جبر أو شرط أو ضغط خارجي على اتخاذ قرار أو تحديد خيار من عدة إمكانيات موجودة. ويعين مفهوم الحرية بشكل عام شرط الحكم الذاتي في معالجة موضوع ما. والحرية هي التحرر من القيود التي تكبل طاقات الإنسان وإنتاجه سواء كانت قيوداً مادية أو قيوداً معنوية.

فالحرية تشمل التخلص من العبودية لشخص أو جماعة أو للذات، والتخلص من الضغوط المفروضة على شخص ما لتنفيذ غرض ما، والتخلص من الإجبار والفرض.

أما في اللغة، فالحرية هي مصدر صناعي، مرگب من الصفة المشبهة "حر"، وحرية الشعب هي سيادته على نفسه، وحرية التجول والتعبير والاعتقاد هي حق الإنسان في اختيار ما يريد وفقاً لاقناعه واعتقاده.

ويعود أصل المفهوم الحديث للحرية للسياسة للأفكار الإغريقية عن الحرية والعبودية، فحتى يكون المرء حراً، حسب الإغريق، كان يجب ألا يحكمه سيّد، وأن يعيش كما يريد، ويرتبط هذا المفهوم بشكل وثيق مع مفهوم الديمقراطية عند أرسطو: حيث يُعدّ ذلك أحد سمات الحرية التي يؤكد جميع الديمقراطيين على كونها من مبادئ دولتهم، بالإضافة إلى أن المرء ينبغي له أن يعيش كما يشاء، أما العكس فيكون علامة على العبودية.

للحرية منحيان، فهناك الحرية السالبة، والحرية الموجبة، ويعود مفهوم هذين النوعين من الحرية إلى الفيلسوف إيمانويل كانت. فالحرية السالبة أو الشخصية هي إمكانية اتخاذ القرار دون قيود وهي حق طبيعي.

والحرية الموجبة حرية مُعطاة، أو إمكانية مُعطاة ليستطيع الإنسان ممارسة الحرية السالبة (الشخصية) وهي حق إنساني أساسي. مثال: إذا كانت الحرية السالبة هي حرية إبداء الرأي مثلا، تكون الحرية الموجبة في هذا المثال: إمكانية استخدام الإعلام مثلا لممارسة هذه الحرية.

ما ورد في أعلاه سعت الرسالة المحمدية إلى تكريسه في المجتمع الإسلامي، وقد الأئمة الأطهار قصارى جهودهم العلمية والمبدئية لكي يشيعوا بين الجميع المنهج الفكري التحرري، فكانت الأمة آنذاك تتمتع بحريات وأفكار نمت على أيدي الرسول الأكرم ومن بعده الأئمة الأطهار.

رفض الفكر الحسيني للدكتاتورية والفساد

وحين حاول يزيد أن ينحرف عن هذا الطريق التحرري، وسعى لتشويه الرسالة الإسلامية وطمر مبادئها، وقف الإمام الحسين عليه السلام ليعلن رفضه لسياسة يزيد الدكتاتورية الفاسدة، وقمع الحريات، ومحاولة تحويل الناس إلى عبيد من خلال فرض العبودية التي تسلب الإنسان قدراته كلها فضلا عن تدمير شخصيته ومسحها وتحويله إلى عبد يأتمر بأوامر الطاغية.

لقد كان المسلمون إبان الرسالة النبوية يتمتعون بحريات واسعة، على الأصعدة السياسية والاقتصادية والدينية وسواها، على خلاف ما جرى في عهد يزيد، أما واقع المسلمين اليوم فإنه ينبئ بتردٍ هائل في مستوى الحريات والحقوق، وهناك صعود مخيف في ارتفاع الخط البياني لسلب الحريات.

الإمام الراحل، آية الله العظمى، السيد محمد الحسيني الشيرازي (رحمه الله)، يقول في كتابه القيم (كتاب من حياة الإمام الحسين ع):

(كانت الأمة الإسلامية - وبيركات القرآن والعترة - تتمتع بالحریات، والیوم كبت وخنق عام، فلا حرية للتجارة، ولا حرية للزراعة، ولا حرية للصناعة، ولا حرية للسفر، ولا حرية للإقامة، ولا حرية لل عمران، ولا حرية .. ولا حرية ...)

في إطلالة میدانية على واقع المسلمین الیوم، سوف یكتشف الباحث أننا نعاني من إدارة سیاسية یشوبها التشوُّه في نواحٍ عديدة، فالممنوعات في ظل بعض الحكومات الإسلامية تكاد تكمم كل شیء، وتسمم حياة الناس، وتسلبهم حقوقهم وحریاتهم، وهو ما قاومته الرسالة المحمدية وغرست في عقول الناس وقلوبهم الفكر الحر، وعلمتهم على حق الرأي والاعتراض والتمتع بالحرية.

وحین غابت أجواء الحرية في عهد یزید انطلقت الثورة الحسينية لتعيد القيم إلى نصابها، وظلَّ شعاع الفكر الحسيني ساطعا إلى یومنا هذا، ومتاحا لكل ذي بصيرة من الحكام والحكومات ولكل ذي عقل حر من المسلمین، ولكن ما یؤسف له حقا، أن المسلمین لا زالوا یفتقدون للتمسك الفعلي بالمنهج الحسيني التحرري.

لذا يتساءل الإمام الشیرازي عما ینقص الأمة الإسلامية الیوم فیقول:

(هل الیوم هناك حركات إسلامية تمضي في خط الإمام الحسين علیه السلام، للنهوض بواقع الأمة، وإنقاذ المسلمین من الفقر والفسق والاستعباد؟).

خطوات ومقترحات لتقدم المسلمین

الواقع هو خیر من ینبغ عن هذه التساؤلات، فما یعیشه المسلمون الیوم یؤكد حاجتهم إلى الالتزام بالمنهج الحسيني التحرري، ولا خلاص من هذا الواقع المزري ما لم یتمسك المسلمون (قادة سیاسيون، واقتصاديون، وعلماء، ومثقفون، وعامة الناس)، بمضامین الفكر الحسيني الراض للقمع والظلم والفساد.

ویقدم الإمام الشیرازي سلسلة من المقترحات والخطوات والنصائح لمن یعنيه الأمر في أمة

المسلمين، من قادة النخب المختلفة، وأفراد الأمة جميعاً، زهي خطوات واضحة للعيان، إذا التزموا بها نهضوا وتقدموا وسوف يستعيدون مكانتهم في صدارة قيادة الأمم كما كان عهدهم إبان الرسالة المحمدية.

(إذا أردنا أن نسير في خط الإمام الحسين عليه السلام، فالواجب علينا بادئ ذي بدء الشروع بعدة أمور منها: أن يكون الحكم بالاستشارة والانتخابات الحرة، لا بالوراثة ولا الانقلابات العسكرية وما أشبهه). هذه أولى الخطوات التي على المسلمين الالتزام بها وتطبيقها على واقعهم فيما لو أرادوا العودة إلى حلبة التنافس التقدمي في العالم.

فالحكومات الإسلامية لا يمكن أن تستمد شرعيتها من الحكم المتوارث، ولا يمكن أن تصل إلى سدة الحكم عبر الانقلابات العسكرية، ولا عبر الانتخاب الشكلي المرسوم مسبقاً، هذا يعني أنها فاقدة للشرعية بشكل قطعي، ولا يمنحها الشرعية إلا الانتخابات الرصينة المصونة عن التلاعب والتزوير.

هذا السلوك السياسي والثقافة الاجتماعية يستطيع المسلمون الحصول عليه فيما لو التزموا بالمنهج الحسيني التحرري، فهو كفيل بإعادة المسلمين إلى حاضنة الحرية التي تكفل لهم تقدماً هائلاً في عالم اليوم، وعودة مضمونة إلى مضمار التنافس العالمي، وهذا لا يمكن أن يحدث أو يتم ما لم يعمل المعنيون في أمة الإسلام على: (إعادة الحريات إلى كل المسلمين، بل وغير المسلمين القاطنين في بلاد الإسلام). وهذه إحدى الخطوات المهمة التي يلزم بها الإمام الشيرازي المسلمين كي يعودوا إلى الصدارة.

وفق هذه الخطوات المستمدة من المنهج الحسيني التحرري، يستطيع المسلمون من توحيد صفوفهم، وتكثيف طاقاتهم، وإعلاء كلمتهم، وتنشيط دورهم التنويري لصنع عالم بلا ضغائن ولا ظلم ولا احتكار واحتقان.

وهناك علة موجودة في المسلمين ثبتها الإمام الشيرازي، ونبه عليها، ولا بد من الوقوف عندها طويلاً، والتخطيط السليم والحديث لمعالجتها، كونها تسهم في بقاء المسلمين في حالة ديمومة من التأخر، هذا الخطأ أو العلة تتمثل في أهمية أن نؤمن بالمنهج الحسيني نظرياً، ونسعى بصدق وإيمان

إلى تطبيقه واقعيًا.

من الجيد أن يؤمن المسلمون بالنهضة الحسينية ومضامينها ومبادئها، وهو أمر مطلوب، لكن الإيمان يبقى في حالة منقوصة ما لم يتم تطبيق هذا الإيمان النظري إلى محتوى مادي عملي ملموس، حتى يكون المسلمون مؤمنين وعاملين بقوة نحو تحقيق أهداف الحسين عليه السلام.

كما نقرأ ذلك في قول الإمام الشيرازي: (وبذلك نكون قد سرنا في طريق الإمام الحسين عليه السلام.. أما الاقتناع بمراسيم العزاء فقط، فإنه مع غاية حسنها وضرورتها، لا يغني عن العمل بأهداف الإمام الحسين عليه السلام).

سوف يبقى المنهج الحسيني التحرري حاجة ملحة لأمة الإسلام، وما على الطبقات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية، إلا العمل الجاد في استلهام هذا المنهج، وتطبيق أفكاره وقيمه ومبادئه في واقعنا الإسلامي، فهذا هو السبيل إلى اعتلاء منصة المجد مرة أخرى بين الأمم المتقدمة.